حرفة التجارة في تاهرت الرستمية

أ.صفي الدين محي الدين
جامعة معسكر

مقدمة

تتفق المصادر التي أرّخت للرستميين، على أنّ حاضرتهم تاهرت لعبت دورا محوريا في التجارة مع مختلف الدول الإسلامية التي عاصرتهم، مغربية كانت أم مشرقية، إضافة إلى السودان (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 36)، إذ أنها، وبعد مدة قصيرة من إنشائها، نمت واتسعت حتى سميت بلخ المغرب (المقدسي ش، 1424هـ/ 2003م: 185)، ويعود ذلك إلى تفاعل عدة عوامل، أبرزها اهتمام سكان تاهرت، وعلى رأسهم حكام الدولة الرستمية، بحرفة التجارة. فما هي هذه العوامل التي جعلت من تاهرت أحد أهم المراكز التجارية في المغرب الإسلامي؟ وما هي مظاهر اهتمام الأئمة الرستميين بحرفة التجارة؟ وفيما تتمثل النتائج التي ترتبت عن نشاط تاهرت التجاري؟

1- تأسيس مدينة تاهرت

لما استفحل أمر الخوارج في المغرب، وبخاصة الإباضية منهم، أرسل إليهم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، واليه على مصر محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي (الزركلي، خ ، 1980: 6 / 39)، الذي استطاع أن يقضي على أبي الخطاب المعافري زعيم الإباضية في إفريقية، سنة 144هـ / 761م، وعلى ولاياته الإباضية بطرابلس (الزركلي خ، 1980: 3 / 269).

ولذلك اضطر عبد الرحمان بن رستم - الذي كان أبو الخطاب قد استخلفه على القيروان والمغرب الأوسط - إلى ترك قاعدة حكمه القيروان والتوغل في المناطق الجبلية للمغرب الأوسط، أين يكثر أتباع مذهبه من

البربر من قبائل لماية ولواتة ورجالة ونفزاوة (ابن خلدون ،ع، 1421هـ/ 2001م: 6 / 147)، وهناك اتفق الجميع على إقامة حاضرة لهم اقتداء بالخوارج الصفرية الذين أقاموا سجلماسة سنة 140هـ/ 757م (ابن خلدون، ع، 1421هـ/ 2001م: 6 / 147).

وبعد استطلاع للمنطقة، اتفق عبد الرحمان بن رستم مع أتباعه على إقامة مدينتهم على أنقاض تاهرت القديمة، فشرعوا في البناء، إلا أنهم كانوا كلما أصبحوا، وجدوا ما بنوه في الليلة السالفة حطاما. فقرروا الإنتقال إلى مكان ثاني يقع إلى الغرب من الأول ويبعد عنه بحوالي خمسة أميال (ابن خلدون،ع، 1421هـ/ 2001م: 6 / 147)، أي ما يزيد قليلا عن تسعة كيلومترات (9275 مترا) باعتبار أن الميل الواحد يساوي 1855مترا (جمعة م. ع، 1421هـ/ 2001م: 97)، وهناك اختطوا مدينتهم تاهرت الحديثة أو العليا والتي عُرفت عند البربر بتاقدمت، ومعناها الدف (البكري، ع، 1424هـ/ 2003م: 2/ 250).

وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ بنائها، إذ يرى بعضهم أنها بنيت سنة 144هـ / 761م (ابن خلدون ع، 1421هـ/ 2001م: 6 / 147)، بينما يرى البعض الآخر أن ذلك تم سنة 161هـ/ 777م (ابن عذاري، 1983: 1/ 196 = إسماعيل م، 1985: 148)، والتاريخ الثاني، حسب رأينا، يبدو الأقرب إلى الحقيقة لاعتبارات أهمها:

- أنه لم يكن بإمكان عبد الرحمان بن رستم وأتباعه التفكير في إقامة حاضرة لهم خلال سنة 144هـ/ 761م، نظرا للأحداث التي تعاقبت عليهم، والمتمثلة في خروج ابن رستم والإباضية فارين من القيروان، بعد انهزام أبي الخطاب ومقتله على يد ابن الأشعث، الذي قام، في نفس السنة، بملاحقة ابن رستم وحصاره عند جبل سوف أجج الواقع جنوب تاهرت،

بين مدينتي قصر الشلالة شرقا والسوقر غربـا (دبـوز م. ع، 1383هـ/ 1963م: 3/ 256)، إلا أنّ الحصار فشل، واضطر ابن الأشعث إلى الرجوع إلى إفريقيـة (أبو زكرياء. ي، 1402هـ/ 1982م: 72)، مما سمح لابن رستم بمواصلة طريقـه نحو مضارب قبيلة لماية لحلـف قـديم بينـه وبيـنهم (ابـن خلـدون ع، 1421هـ/ 2001م: 6 / 159)، وبعد وصوله نزل وأتباعُه بين القبائـل البربريـة الإباضـية. كل هذه الأحداث توحي بأن عبد الرحمـان بـن رسـتم لم يتسـن لـه بنـاء تـاهرت الحديثة أو السفلى سنة 144هـ/ 761م.

- كما أنّ مبايعة عبد الرحمـان بـن رسـتم بالإمامـة، كـان مـن بـين دوافعهـا، التفكير في إنشاء تاهرت، مع العلم أن المصادر الإباضية تشير إلى أن المبايعـة تمـت سـنة 160 أو 162هـ/ 776- 777م (ابـن الصـغير، 1406هـ/ 1986م: 29= أبو زكرياء. ي، 1402هـ/ 1982م:81).

- بعد أن فشل ابن رستم وأتباعـه في بنـاء حاضـرة لهـم علـى أنقـاض تاهرت القديمة، بدأوا يبحثون عن مكان آخر أكثر ملاءمة لذلك، يوفر لهـم الحماية من أية هجمات محتملة، ويحتـوي علـى عوامـل الاسـتقرار وسـبل العيش (الباروني. س، د. ت: 2/ 6)، ولم تكن عملية البحث هذه لتنتهي في سـنة 144هـ/ 761م، ويبـدأ الإباضـيون في بنـاء حاضـرتهم تَـوًّا، نظـرا للأحداث التي شهدتها هذه السنة والتي لم تكن تسمح بذلك.

اعتمادا على ما سبق، أصبح بإمكاننا القول بأنّ الشروع في بناء تـاهرت الحديثة أو السفلى كان في سنة 161هـ/ 777م، مثلما ذهب إليه ابـن عـذاري والزركلي.

ويبدو أنّ الإباضية قد وُفِّقـوا في اختيـار موقـع بنـاء حاضـرتهم، نظـرا للمؤهلات التي يتوفر عليها هذا الموقع، وأهمها:

أ) توفره على مصادر مياه هامة، إذ تقع تاهرت على نهرين هما نهر تـاتش ونهر مينـة أو مينـاس (يـاقوت. ح، 1984: 2/ 8 = ابـن خلـدون ع،1421هـ/ 2001م: 6/ 159)، بـل يجعلـهما ابـن عـذاري ثـلاث أنهـار (ابـن عـذاري، 1983: 1/ 196)، ولذلك ذكر المقدسي أنّ الأنهار تحدق بها، ووصفها بغـزارة مياهها (المقدسي ش، 1424هـ/ 2003م: 185)، ولا أحـد يجهـل أهميـة المـاء ودوره في الحياة الإقتصادية والإجتماعية للدول، ونتج عن ذلك اتساع المسـاحات الزراعية التي كانت تدر منتجات جيدة كثيرة ومتنوعـة (يـاقوت ح، 1984: 2/ 8).

ب) كانت تحيط بتاهرت منطقـة غابيـة (المقدسـي ش، 1424هـ/ 2003م: 185)، إذ يصف ابن عذاري تاهرت بأنها غيضة (أي غابة) وسط ثلاثة أنهـار (ابـن عـذاري، 1983: 1/ 196)، ممـا أدى إلى وفـرة الأخشـاب الـتي تسـتعمل كمصدر لتوليد الطاقة، وتدخل كمادة أولية في عدد من الصـناعات، كمـا كانـت تستخدم أيضا في عمليات البناء (البكري ع، 1424هـ/ 2003م: 2/ 250).

ج) يتوســط موقــع تــاهرت المنــاطق التليــة والصــحراوية (دبــوز م.ع، 1383هـ/ 1963م: 3/ 225)، أي أنه يشـرف علـى المنـاطق السـهبية الرعويـة الواسعة، وهذا ما أدى إلى وفرة الثـروة الحيوانيـة، وأصـبحت هـذه المدينـة أحـد معادن الدواب والماشية والغـنم والبغـال والـبراذين الفراهيـة (ابـن حوقـل، ق، 1996: 86)، ونـتج عــن ذلــك تــوفر المنتجــات الحيوانيــة المختلفــة كالألبــان والأصواف واللحوم والجلود، والتي كان يُستهلك جزء منها محليـا، بينمـا يصـدر الجزء الزائد عن الحاجة.

د) وقوع تاهـــــــــــــرت في منطقة داخليـة، بعيـدة عـن السـاحل، وتحديدا في السفح الجنوبي لجبل جزول، جعلـها في منـأى عـن أي هجـوم خارجي بحري، وبخاصة من طرف العباسيين، كما أن تواجدها وسط منطقة

آهلة بالقبائل البربرية الإباضية مثل هوارة ولواتة ومكناسة ومزاتة ولماية (إسماعيل م، 1985: 147)، وفر لها مزيدا من الأمن.

٥) ومما زاد من أهمية موقع هذه المدينة، أنها تقع على طريقين تجاريين شُهِرا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي: هما طريق الشرق- الغرب، وطريق الشمال- الجنوب (الجنحاني ح، 1398هـ/ 1978م : 130)، ويذكر ابن الصغير أن السبل استعملت إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986: 36).

من هذه المؤهلات التي ذكرناها، تتبين النزعة الزراعية والتجارية لمدينة تاهرت التي أصبحت بعد فترة قصيرة من إنشائها، أحد المراكز التجارية الهامة في المغرب الإسلامي، ولعبت بذلك دورا رائدا في النشاط التجاري في هذه الجهة من العالم الإسلامي.

2- العوامل التي ساهمت في تنشيط حرفة التجارة في تاهرت الرستمية

- ✓ وقوعها على طريقين تجاريين هامين؛ طريق شمال- جنوب، أهلها للعب دور الوسيط التجاري بين دول حوض البحر المتوسط (الشامي) ومنطقة جنوب الصحراء (السودان)، وطريق شرق- غرب، وبذلك كانت محطة للقوافل التجارية المتجهة من شرق المغرب الإسلامي إلى غربه أو العكس.

- ✓ غناها بالثروات الزراعية المختلفة، وبخاصة الحبوب وعلى رأسها القمح، والموارد الطبيعية، مثل الأخشاب والملح وغيرهما، وهذه المنتجات

✓ تمرس القبائل البربرية المغربية، وذلك منذ الوجود القرطاجي ثم الروماني، على اختراق الصحراء الكبرى، ولعبِ دور الوسيط التجاري بين السودان والمحطات التجارية للساحل الجنوبي للمتوسط، وبعد إنشاء الدول الإسلامية الأولى في المغرب الإسلامي، حافظ البربر، وبخاصة قبيلة هوارة (الإدريسي ش، 1983: 135)، على هذا النشاط وطوروه.

«…les marchands berbères-ibadites étaient, en effet, connus autre fois pour leur esprit d'entreprise, et ce fut a eux que revient le principal mérite de l'organisation d'un commerce d'échanges avec le soudan … au Xème siècle» (Lewicki T, 1964: 296).

3- ظاهر اهتمام الحكام الرستميين بالتجارة

يضاف إلى العوامل السابق ذكرها، الأهمية القصوى التي أولاها الحكام الرستميون للتجارة والتي تجلت في مجموعة من المظاهر، أبرزها:

أ-

توسيع العلاقات مع الخارج

سعى الإباضيون، بعد تأسيسهم لحاضرتهم، إلى تحسين علاقاتهم مع الدول المجاورة لهم، رغم الاختلافات المذهبية، أو نزاعات مسلحة سابقة، مثل الدولة الأغلبية والدولة الأموية في الأندلس. فقد قام عبد الرحمان بن رستم بموادعة الوالي العباسي في القيروان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب (171- 174هـ/ 787- 790م) (ابن خلدون ع، 1421هـ/ 2001م: 6/ 148)، ثم أنكح ابنته أروى من مدرار المنتصر بن اليسع بن أبي القاسم الذي تولى الحكم في سجلماسة سنة 208هـ/ 823 م (ابن خلدون ع،

1421هـ/ 2001م: 6/ 172)، ولـولا هـذه المصـاهرة لكانـت الحـروب بـين الدولتين متوالية والفتن متتابعة (الباروني س، د. ت: 2/ 94).

ولم يتوان حكام تاهرت في إرسال سفارة بقيادة محمد بن عرفة إلى ملك مملكـة "جـاو أو غـاو" بالسـودان الغربـي (ابـن الصـغير، 1406هـ/ 1986م: 71)، وأخرى إلى الأندلس، متكونة من الأبناء الثلاثة لعبد الوهاب بن عبد الرحمان بـن رستم (ابن سعيد ع، 1955: 1/ 48)، وكان الهدف من هاتين السفارتين، تمـتين العلاقات السياسية والتجارية بين تاهرت وهذه الدول.

وحتى مع الدولة العباسية، التي كانت تعتبر ألد أعداء الخـوارج، فلـم يسـجل للرسـتميين أي رد فعـل بعـد أن ألقـى الخليفـة العباسـي الواثـق بـالله (227-232هـ/ 842- 847م) القبض على محمد بن الأفلح الملقـب بـأبي اليقظـان في عهد إمامة أبيه أفلح بن عبـد الوهـاب (211- 240هـ/ 826- 854م)، وبعـد تـولي المتوكـل(232- 247هـ/ 847- 861م) أمـر الخلافـة العباسـية، أطلـق سراح أبـي اليقظـان فعـاد إلى تـاهرت وتـولى الإمامـة (261- 281هـ/ 875-894م)، واستمرت بين الحاكمين العلاقات الودية التي نمت بينهما في السجن.

كما فتح الرستميون حاضرتهم أمام أتباع المذاهب المختلفـة، وسمحـوا لهم بالإستقرار في تاهرت، ومزاولة نشاطاتهم بكل حرية، فانتقل إليها أهل الأموال والتجار من العراق (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 36) ومن مصر وإفريقية والمغرب والأندلس (ابن القوطة ب، 1989: 77)، واسـتقرت بهـا جموع من السنة والشيعة (ابـن الصـغير، 1406هـ/ 1986: 105) والمعتزلـة والخوارج الصفرية (البـاروني س، د. ت: 2/ 94)، وعـدد مـن النصـارى واليهود.

أ- اعتناء الأئمة الرستميين بالتجارة

كان عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم أحد كبار التجار في تاهرت (الباروني س، د. ت: 2/ 137)، وكانوا يسهرون على حماية القوافل التجارية، بحيث أنّ أبا حاتم كان، عند وفاة أبيه الإمام أبي اليقظان، قد خرج على رأس جيش في مهمة حماية القوافل التجارية القادمة من المشرق من اعتداء قبائل زناتة (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 104)، كما أنّ اهتمام الرستميين بالتجارة يتجلى منذ اختطاطهم لحاضرتهم، إذ كانت الأسواق والفنادق من المنشآت الأولى التي أقاموها (الباروني س، د. ت: 2/ 8)، وسمحوا للمجموعات المختلفة التي استقرت بتاهرت ولبعض الخواص أيضا بإقامة أسواق خاصة بهم، من هؤلاء ابن وردة الفارسي (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986: 62)، كما عين الأئمة الرستميون من يسهر على نظافة هذه الأسواق وتنظيم العمل فيها.

ج- السماح بتعدد الأسواق في مدينة تاهرت

سمح الأئمة الرستميين بتعدد الأسواق في مدينة تاهرت؛ فمنها ما كان ملكا لمجموعة بشرية أجنبية كالفرس والقرويين والكوفيين والبصريين، ومنها ما كان ملكا لأشخاص معينين مثل سوق ابن وردة الفارسي، وكانت هذه الأسواق عامرة ونشيطة (القلقشندي. أ، 1987: 5/ 106)، ويبدو أنّ الأسعار كانت منخفضة بسبب وفرة المنتجات المعروضة في هذه الأسواق، وإلى ذلك أشار البكري بقوله «... وقنطار الزيت وغيره عندهم قنطاران غير ثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره فإنه قنطار عدل، ورطل اللحم عندهم خمسة أرطال » (البكري ع، 1424هـ/ 2003م: 2/ 250)، وما تعدد أسواق تاهرت، إلا دليل على الكميات الهامة من البضائع التي كانت ترد إليها، ومن بين هذه البضائع، المنتجات الفلاحية المحلية المختلفة مثل

الحبوب، وبخاصة القمح والشعير والذرة (الباروني س، د. ت، 2/ 17)، إضافة إلى البقول مثل الحمص والفول والعدس، والفواكه المختلفة والرياحين (القلقشندي. أ، 1987: 5/ 107)، كما تميزت بوفرة ثروتها الحيوانية، وأصبحت بذلك أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية (ابن حوقل ق، 1996 : 86)، ناهيك عن المنتجات الحيوانية مثل العسل والسمن وغيرهما (الحميري. م، 1980: 126).

زيادة على المنتجات الفلاحية، فإنّ أسواق تاهرت خصوصا، والدولة الرستمية عموما، كانت تستقبل عددا من المنتجات الصناعية التي كانت تصنع محليا أو تجلب من الدول المجاورة، نذكر منها الأنسجة القطنية والصوفية والكتانية والحريرية، وأصناف الزجاج، والأصداف، والأحجار، وأنواع الأفاويه، والمصنوعات النحاسية، والحلي، والأواني الفخارية والخزفية (الباروني س، د. ت: 2/ 185)، وما كان يجلب من السودان من عبيد وتبر وعاج وريش نعام وجلود حيوانات وغيرها (سالم ع. س، 1981: 2/ 573)، وكذا التمور المنتجة في المدن الرستمية مثل بسكرة ووارجلان وفزان وغدامس (مجهول، 1958: 150).

د- الاعتناء بتنظيم الأسواق ونظافتها

لقد أَوْلى الرستميون عناية خاصة بنظافة الأسواق وتنظيم الحركة فيها ومنع أنواع الغش التي يمكن أن تحدث فيها، فعندما آلت الإمامة إلى أبي اليقظان،«... أمر قوما من نفوسة بالمشي في الأسواق، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإن رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه، وإن رأوا دابة حُمِل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قذرا في الطريق أمروا مَنْ حول الموضع أن يكنسه...» (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م، ص88).

ب- انعكاسات النشاط التجاري على تاهرت

ترتبت عن النشاط التجاري الكثيف لتاهرت مع مختلف المناطق، نتائج تراوحت بين السلب والإيجاب، لعل أبرزها ما يلي:

- استغناء تاهرت عن المساعدات المالية من المشرق: إذ تلقى عبد الرحمان بن رستم ثلاثة أحمال من المال مساعدة له من إباضيي المشرق، وذلك مباشرة بعد إعلانه عن تأسيس الدولة الرستمية، فقبلها وقسمها إلى ثلاثة أقسام، ثلث للكراع وثلث للسلاح وثلث للفقراء (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م:34)، مما يوضح حاجة تاهرت ماسة إلى مثل هذه الأموال. وبعد ثلاث سنوات أرسلوا إليه بعشرة أحمال كمساعدة ثانية، إلا أنه رفض قبولها، وقال "الآن استغنينا وقوينا" (الباروني س، د. ت: 2/ 84)، وهذا ما يؤكد بأنّ الحركة الاقتصادية في تاهرت، والقائمة على النشاطين الزراعي والتجاري، سمحت لهذه المدينة بأن تتقوى ماليا وعسكريا في ظرف زمني قصير، وهذا ما عبر عنه عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم بقوله: " لو لم أكن إلا أنا وابن جرني وابن زلفين لأغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية"، فعبد الوهاب تاجر كبير، وابن جرني فلاح كبير، وابن زلفين من كبار مربي المواشي (الباروني س، د. ت: 2/ 137).

- انقسام المجتمع الرستمي إلى طبقتين، الأولى أرستقراطية، تكونت في غالبيتها من التجار الكبار إضافة إلى الفلاحين الكبار ومربي المواشي الكبار، استطاعت أن تجمع ثروات طائلة، بحيث أنه كان بإمكان ثلاثة منهم إغناء بيت المال، والثانية كادحة محرومة، تنتظر الصدقات من بيت مال المسلمين أو إحسان الأثرياء، فعبد الرحمان بن رستم كان يحصي الفقراء والمساكين ويوزع عليهم المواد الغذائية والثياب والأغطية (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 41)، وعندما ذهب الإمام الرستمي عبد الوهاب في

زيارة إلى جبل نفوسة، ألحقت خيله ودوابه ضررا بالمزروعات والأشجار، فدخل عليه أحد علماء الجبل وقال له: "لقد آذيت الضعفاء والفقراء واليتامى بخيلك" (الباروني س، د. ت: 2/ 143)، وكان أفلح بن عبد الوهاب يطعم الجيعان (الباروني س، د. ت: 2/ 42)، ولا شك في أن الأمور تفاقمت وأن الهوة زادت بين الطبقتين بعد عبد الرحمان بن رستم، بسبب ازدياد النشاط التجاري، وبالتالي ازدياد ثروة التجار، واتساع الطبقة المحرومة.

- ازداد ثراء القبائل المحيطة بتاهرت، واتخذت العبيد والخيول، ومن الراجح أن تكون التجارة المصدر الرئيس لهذا الثراء، الذي بات يقلق الحكام الرستميين، حتى خاف أفلح أن تجتمع الأيدي عليه فتزيل حكمه (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 63)، مما اضطره إلى اتخاذ أبواب من حديد لحاضرته (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 61).

- تنامي نفوذ كبار التجار في تاهرت، فأصبحوا يتدخلون في بعض النزاعات التي عاشتها الدولة الرستمية، فبعد علمهم بمقتل محمد بن عرفة، ثار عرب القيروان ضد السلطة الرستمية؛ فتدخل كبار التجار القرويين في تاهرت، مثل ابن الواسطي وأبي محمد الصيرفي، وعرضوا على الثوار الأموال وقالوا لهم: " لو بنيتم حصنا تأمنون فيه ليلكم وتتحصنون فيه إن دهمكم شيء من عدوكم وهذه أموالنا في أيديكم" فشرعوا في بناء الحصن ولم يكن بين حصنهم وحصن عدوهم إلا قدر رمية رام بسهم (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 83).

ومن ناحية أخرى، وجد بتاهرت تجار أثرياء لم تكن تسري عليهم قوانين البلاد، منهم ابن وردة الذي ابتنى سوقا، لم تجسر الشرطة و المحتسبون على دخوله هيبة من صاحبه (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م:

62)، الذي عرف بثرائه وقوته الكبيرة في القتال (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 84).

- رغم سعي الرستميين إلى تحسين علاقاتهم السياسية مع مختلف الدول المجاورة لهم، إلا أنّ النشاط التجاري الكثيف لتاهرت، جلب لها حنق بعض هذه الدول، إذ قامت الدولة الأغلبية، في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب (226- 242هـ/ 850- 856م)، ببناء مدينة العباسية بهدف جعلها مركزا تجاريا ينافس تاهرت، لذلك رتب الأمير الأغلبي أسواقها على نسق وترتيب غريب (الباروني س، د. ت: 2/ 186)، فسار إليها أفلح بن عبد الوهاب بن رستم وأحرقها سنة 239هـ/ 853م (البلاذري أ، 1407هـ/ 1987م: 328)، لأنه رأى فيها تهديدا لأمن تاهرت ومصالحها التجارية.

ـ اتساع مدينة تاهرت في ظرف زمني قصير، وظهور حركة عمرانية نشيطة، وتفنن الأثرياء في بناء القصور، واتخاذ العبيد والخدم، وفي هذا الإطار يتحدث ابن الصغير عن قصري إبان وحمويه (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 61)، كما أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب اتخذ أكثر من قصر (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 61)، مما يدل على ارتفاع المستوى المعيشي، وانتقال الأئمة الرستميين من الحياة البسيطة التي كان يعيشها عبد الرحمان بن رستم إلى حياة الترف، كما أن اتخاذ القصور لم يقتصر على مدينة تاهرت بل تعداه إلى القبائل الضاربة في جوارها، والتي اكتسبت الأموال واتخذت العبيد والخيول ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 63)، ومن بين مظاهر هذه الحركة العمرانية، اتخاذ أفلح بن عبد الوهاب أبوابا من حديد (الباروني س، د. ت: 2/ 42)، وكان للعناصر المختلفة التي توافدت على تاهرت واستقرت بها مثل

الأندلسيين والبصريين والكوفيين والقرويين سهم كبير في الحركة العمرانية لتاهرت.

- فرض النشاط التجاري على حكام الدولة الرستمية، القبول بدخول الوافدين على مدنهم، وبخاصة الحاضرة تاهرت، فانتقل إليها أهل الأموال والتجار من العراق (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 36) ومن مصر وإفريقية والمغرب والأندلس (ابن القوطة ب، 1989: 77)، واستقرت بها جموع من السنة والشيعة (ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م: 105) والمعتزلة والخوارج الصفرية (الباروني س، د. ت: 2/ 94)، ودخل الأئمة الرستميون والعلماء الإباضيون في مناظرات مع من خالف مذهبهم، فقد حضر الإمام عبد الوهاب مناظرة جرت بين علماء الإباضية والمعتزلة (الشماخي، 1995: 155)، وبذلك شهدت تاهرت والمدن الرستمية الأخرى، حركة فكرية ثقافية، شارك فيها الأئمة الرستميون تعليما مثل الإمام عبد الوهاب الذي كان يجلس للتعليم في مسجد تاهرت ومسجد جبل نفوسة (الشماخي، 1995: 159)، وتأليفا إذ كان لعبد الرحمان بن رستم ديوان خطب (الباروني س، د. ت: 2/ 98)، وكان أفلح عالما بالحساب والفلك والتنجيم، وأديبا شاعرا، له عدة مؤلفات (الشماخي، 1995: 192).

إنّ النشاط التجاري، بقدر ما ساهم في تنشيط الحركة الفكرية وإثراء الدولة الرستمية، وتحسين المستوى المعيشي لسكانها، الذين تنافسوا في تشييد القصور وامتلاك الضياع، واكتسبوا فنون العمارة، بقدر ما كان له تأثير سلبي على هذه الدولة، بحيث تسبب في نزاعات خارجية، وبخاصة مع الأغالبة، كما تسبب في نزاعات داخلية، كان كبار التجار أحد أطرافها

الرئيسة، وهذا ما ساهم في إضعاف الدولة الرستمية وسقوطها السريع على يد الفاطميين.

قائمة المصادر والمراجع

أ) المصادر:

* الإدريسي الشريف أبو عبد الله،1983م، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

* البلاذري أبو العباس أحمد بن يحيى،1407هـ/ 1987م، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، بيروت، مؤسسة المعارف،.

* البكري أبو عبيد، 1424هـ/ 2003م، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

* الحميري محمد بن عبد المنعم، 1980، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة.

* ابن حوقل أبو القاسم، 1996، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر.

*ابن خلدون عبد الرحمان، 1421هـ/ 2001م، كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار الفكر.

* أبو زكريا يحيى،1402هـ/ 1982م، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

* ابن سعيد المغربي، 1955م، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط3، القاهرة، دار المعارف.

* الشماخي أبو العباس أحمد، 1995، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، تونس، شركة أوربيس للطباعة.

* ابن الصغير، 1406هـ/ 1986م، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

* ابن عذاري المراكشي، 1983، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج س كولان وإ.ليفي بروفنسال، ط3، بيروت، دار الثقافة.

* القلقشندي أحمد بن علي،1987، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف علي الطويل، ط1، دمشق، دار الفكر.

* ابن القوطية أبو بكر، 1989م، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

* مجهول، 1958، الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، مطبعة الجامعة.

* المقدسي شمس الدين، 1424هـ/ 2003م، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

* ياقوت الحموي، 1404هـ/ 1984م، معجم البلدان، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر.

ب) المراجع:

*إسماعيل محمود عبد الرازق، 1406هـ/ 1985م، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف ق4هـ، ط2، الدار البيضاء- المغرب، دار الثقافة.

* الباروني سليمان بن عبد الله النفوسي، دت، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، الجزء2

* جمعة علي محمد، 1421هـ/ 2001م، المكاييل والموازين الشرعية، ط2، القاهرة، القدس للإعلان والنشر والتسويق.

*الجنحاني الحبيب، 1398هـ/ 1978م، المغرب الإسلامي، الحياة الاقتصادية والإجتماعية، (3- 4 هـ/ 9- 10م)، الجزائر، الدار التونسية للنشر - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

*دبوزمحمد علي، 1383هـ/ 1963، تاريخ المغرب الكبير، ط1، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

* الزركلي خير الدين، 1980م، الأعلام، ط5، بيروت، دار العلم للملايين.

*سالم السيد عبد العزيز، 1981، المغرب الكبير ج2- العصر الإسلامي- بيروت، دار النهضة العربية.

*Lewicki Tadeusz:(1964) Traits d'histoire du commerce transsaharien. Marchands et missionnaires ibadites en Soudan occidental au cours des VIIIème - XIIème siècles, VIII, Etnografia, Wroclaw-Warszawa-Krakow, Polska.